

التطرق على شعر الوطنية عند الرّصافي والزكوي:دراسة تحليلية مقارنة

د. رحمة بنت الحاج عثمان

عبد القهار عبد الوهاب الصارمي

قسم اللغة العربية وآدابها

كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية

الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا

خلاصة البحث

يرنو هذا البحث، إلى كشف أوجه التشابه والتباين في شعر الوطنية بين معروف الرصافي شاعر العراق وعبد الرحمن الزكوي شاعر نيجيري. ويميل البحث إلى المنهج الوصفي التحليلي المقارن في دراسة بعض نصوص شعرية مختارة من دواوين الشعارين وفقا لمعايير المضمون والشكل، محاولا من خلال ذلك الوقوف على ملامح تأثر اللاحق منهما بالسابق، وأدوارهما في البناء الحضاري. وقد اقتضت طبيعة هذا المنهج أن تجيء الدراسة في أربعة مباحث، بادئا بمراجعة شعر الوطنية كغرض من أغراض الشعر العربي، ثم عرض ترجمة وجيزة عن الأدبيين وتقديم نماذج من أشعارهما في الغرض المحدّد، فمواصلا بمقارنة بين النموذجين نسعى للوصول إلى نتائج والاستخلاص إلى خاتمة.

مقدّمة

1. الشعر الوطني

الوطن هو أرض وجماعة أو شعب يتواصلان وينصهران في مدى الزمن وحركة التاريخ. وتنشأ عبر هذا التلاحم والانصهار رابطة تجمع بين هذا الأخير وتلك الأرض، وتستوي المنطلق للشعور الوطني، أو الصالح الوطني، الذي هو في الواقع الدافع الأهمّ للدفاع عن الوطن، واقتدائه. وإنه هو الملهم للأدب الوطني المتعدّد في منطلقاته ومعطياته وأبعاده في الشعر والنثر. وهذا الأدب هو في الشعر شوق وحنين، وشكوى،

ونقمة، ورفض، ومقاومة، واستجلاب للدرب، والخلاص، وإعجاب وفخر، وإصلاح، وثورة، وتغيير وتقدم، وانطلاق يرق ويعذب، أو هو يقوى ويتفجر ويشير ويلهب¹.

والتيار الذي يمثّل الوعي العربي بأشكاله المختلفة ومظاهره المتنوعة، والذي يعبر عن شعور الأمة العربية بكيانها وإحساس الشعب العربي بذاته وبحقّه في حياة كريمة، يسمّى تارة بالإحساس الوطني وبالإحساس العربي تارة أخرى². وقد ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم حديث ظهر فيه إحساسه الوطني وحبه لبلده: "والله إنك لخير أرض الله، وأحبّ أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت" وفي موضع آخر قال لمكّة: "ما أطيبك من بلد وأحبك إليّ، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك"³ والشعر الوطني هو الصوت المعبر عن الوطن بأرضه وشعبه، في آلامه وآماله، ومختلف⁴ ظروفه وأحواله. وهو قدس قدم نشأة الوطن ومسيرته عبر حركة الوجود الإنساني المادي والمعنوي، صغيرا كان هذا الوطن أم كبيرا. وقد ظهر في آداب أمم شتى غربية كالليونان والرومان، وشرقية كالهند، والفرس والعرب، وما كانت إلباذا هوميروس وشاهنامة الفردوسي، وشعر العرب في الصراع العربي-الفارسي، والعربي الحبشي، وشعر امرئ القيس⁵ في طريقه إلى الملك الرومي، وما قاله عدي بن زيد في سجنه إلا شعرا وطنيا.

ويظهر الشعر الوطني العربي في عصر صدر الإسلام في قصائد تعمر بالحنين حينا، وبالفخر حينا آخر، ينشئها شعراء عرب مسلمون في حروب التحرير والفتوحات. ويعمق هذا الشعر شجوا في العصر الأموي في قصائد يطلقها شعراء عرب من وراء قضبان السجون يحتنون فيها إلى مرابع صباهم وشبابهم، أو هو يسطع في قومية عربية متوثبة عند ولاية أمويين كنصر بن سيار⁶ ينذر الساسة الأمويين بخطر داهم سواء على الحكم الأموي أم على الوجود العربي برمّته ويصدق في إنذاره وتحريضه.

ويبرز الشعر الوطني بطابع الحماسة القومية في العصور العباسية عند أبي تمام، وأبي الطيّب المتني، وأبي فراس الحمداني، ويتفرق هذا الشعر شجيا آسيا في المدى العربي الأندلسي. وهو يدفع حينا خالصا ومؤثرا إلى المشرق العربي على لسان عبد الرحمن الداخل أو صقر قريش. ويشتعل لوعة في فراق ربوع أندلسية كما كان عند المعتمد بن عبّاد، ولسان الدين بن الخطيب⁷. وينطلق الشعر الوطني صافيا وشاحذا المهم في عهد الأيوبيين إبان كفاح هؤلاء الظافرين ضدّ الغزاة الصليبيين الغربيين الآثمين. إذ لا بدّ، بعد أن ضعفت الدولة العثمانية، من وجود كيان لحماية الأمة العربية التي هدّدها الاستعمار وتحداها في أقطارها، وبعد سقوط الدولة العثمانية قابل العرب الاستعمار الغربي وجها لوجه، وقسم الاستعمار البلاد العربية مما جعل

العرب تتنادى بالدعوة إلى الوحدة العربية لحماية أنفسهم أمام هذه القوة العارضة التي هدّتهم في أرضهم.⁸

وقد كانت التحديات الخارجية هي التي تبعث في الأمم وسائل الدفاع والحماية، وتوحّدها وتكتلها للبقاء على كيانها ومقوماتها، فقد كانت الدعوة الإسلامية واضحة وقوية عندما تحدّت الحروب الصليبية على البلاد العربية. فلم يكن مناص من دعوة تحمي بها نفسها، وكانت الدعوة الإسلامية هي التي ضمّت البلاد العربية وقضت على الاستعمار الغربي المتمثّل في الحروب الصليبية. وهنا بدأت الوعي العربي يراجع نفسه وفكر العرب من جديد في العلاقة بين الدولة العثمانية المسلمة وبين الأمة العربية، فثارت حيرة في النفوس بين هذين الأمرين وتساءل المفكّرون عما تعنيه الأمة، هل هي تعني الأمة الإسلامية أم تعني الأمة العربية، وهل الأمة معناها القوم؟⁹

وقد رأى بعض الأدباء ومنهم أديب إسحاق¹⁰ أن الأمة والجيل في كل حيّ من الرجل قومه وفي عرف أهل السياسة الجماعة المتجنسة جنسا واحدا، وبهذا ميّز أديب إسحاق بين الأمة العربية وهي القوم، والأمة الإسلامية وهي عدّة أقوام يجمعها دين واحد. ويرى الكواكي ونجيب عازوري¹¹ أن هدف عصبة الوطن العربي تحرير الشام والعراق من سيطرة الترك وتكوين دولة عربية من القطرين على أسس حديثة. ولقد ظهرت بوادر الدعوة القومية في مولد الرصافي، العراق عندما أساء الموظفون الأتراك إلى بعض الأسر فوجدنا آثارها تمتدّ إلى القرن الثامن عشر عندما حاول سليمان الشاوي شرح قصيدة الشنفرى¹² لشحذ همم العرب، والحرص على إبقاء العنصر العربي طاهرا لا تشوبه شائبة غربية من العناصر الأجنبية. فظهرت الدعوة القومية بصور شتى منها الدعوة إلى الإصلاح والثورة على الفساد والمطالبة بالحرية، وقد ظهرت الدعوة واضحة جلية عندما تبرّم أهل العراق من سوء معاملة الأتراك لهم مما حدا بالشعراء أن يجعلوها موضوع شعرهم.

ويضعف عطاء الشعر الوطني في عهود التردّي العربي. ويعود إليه توهّجه بعد حين من الزمن عند شعراء عاملين شاميين يهاجرون من الشام إلى بلاد فارس والهند وسواهما¹³، ثمّ يهيج فيهم الحنين إلى ربوعهم العاملة الشامية العربية الحبيبة.

ويتقدّم الشعر الوطني ويزداد انطلاقا في عصر النهضة الحديثة مع محمود سامي البارودي، والشيخ إبراهيم اليازجي. ويكثر عطاؤه في العصر الحديث مع عبد المحسن الكاظمي، ومعروف الرصافي، وجميل صدقي الزهاوي، وأحمد شوقي، وحافظ إبراهيم، وخليل مطران .

وينطلق الشعر الوطني العربي بعيدا في الوجدان والشفافية المستقبلية فيرى حقيقة الأمور والأحداث قبل أن تقع كما كان عند أبي القاسم الشابي، وإبراهيم طوقان، وأبي سلمى عبد الكريم الكرمي، وعمر أبو

ريشة. ويرحب هذا الشعر مدى وإذا هو صوت تحرير ومقاومة يجرض ويقود، ويجسّر العبور من ظلام القيود والعبودية إلى فجر الحرية والاستقلال عند عمر أبو ريشة، ومحمود درويش، وخليل حاوي، والجواهري¹⁴. ويواصل الشعر الوطني العربي طريق عطائه منطلقاً في آفاقه وأبعاده، متنوعاً في الشكل، وهادياً ورائداً في معركة المقاومة والتحرير الوطني في شتى أنحاء الوطن العربي بل ملهبا حماس المقاومين والمجاهدين ضدّ صهاينة وحلفائهم الأمريكيين وغير الأمريكيين من المستعمرين المجرمين. وبالنسبة للرصافي، موضوع دراستنا هنا، فقد كان داعياً من دعاة الوحدة العربية والإسلامية ولكنه دعا إلى وحدة عربية بلا تمييز بين الطوائف فقال في ذلك أشعاراً كثيرة طريفة. وقد دعت أحوال العصر الذي عاشه الرصافي إلى اهتمام بشؤون الوطن والناس، وهو يرى أن ليس للوطن معنى إذا لم يكن حرّاً ولا معنى للحرية إذا لم يستقل الناس بأنفسهم وهو يعتقد أن في الدعوة إلى العلم إخلاصاً للوطن وإخلاصاً للشعب¹⁵.

2. ترجمة وجيزة عن معروف الرصافي

حياته وسيرته:

ولد الرصافي في بغداد عام 1294 هجرية (1875 ميلادية) في عهد السلطان عبد العزيز¹⁶. فقد عاش بين 1875م و1945م وعاش أحداثا جسيمة، وشهد متغيرات عديدة¹⁷. كان أبوه عبد الغني محمود، عريفا في الجيش العثماني، كردي الأصل من عشيرة الجبارية في لواء كركوك، اشترك في الحرب الروسية عم 1877م، فلما عاد انخرط في سلك الدرك (الجندرمه) الذي كان يتولى المحافظة على الأمن خارج المدن. ولذلك كان كثير الترحال وقلما يقطن ببغداد، فلم يكن ابنه معروف يراه إلا نادرا. وقد عنيت بتنشئته أمه (فاطمة بنت جاسم) التي لم تلد سواه، فتعلقت به وتعلقت بها، وكان لها أثر عميق في نفسه، وهي التي كانت مرجعه في كل شيء، حتى بعد تجاوزه العقد الأول من حياته، وهي التي كانت ترسله إلى الكتاب وهو صغير، وهي التي كانت تجهز له كل ما يلزم لذلك¹⁸.

وواظب معروف على الذهاب إلى الكتاب، فحفظ القرآن الكريم وتعلم مبادئ الكتابة، ثم انتقل إلى الدراسة الابتدائية، وبعد ثلاث سنوات تركها وانتسب إلى المدارس الدينية، ودرّس في بادئ الأمر على يد عدد من كبار العلماء في بغداد، ثم التحق بحلقة علامة عصره الشيخ محمود شكري الألوسي، وأخذ يتلقى عليه علوم الدين والفقه وعلوما أخرى كاللغة والمنطق. ولازم الرصافي أستاذه اثني عشرة سنة. وكان الأستاذ معجبا بنوع تلميذه وذكائه المفرط، وهو الذي أطلق عليه لقب "الرصافي" تيمنا بأن يكون صنو سميّه معروف الكرخي (المتوفى) سنة 815م¹⁹. وفي هذه الحقبة من حياته بدأ الرصافي بنظم الشعر على الطريقة القديمة، وكان أكثر ما ينظم في سبيل التدريب ولتقوية ملكته الشعرية في مدح أستاذه الألوسي وتهنئته في شتى المناسبات²⁰.

اشتغل بالتعليم، ونظم أروع قصائده في الاجتماع والثورة على الظلم قبل الدستور العثماني، وسافر بعد الدستور إلى الأستانة، فعين معلما للعربية في المدرسة الملكية، وانتخب نائبا عن "المنتفق" في مجلس "المبعوثان" العثماني وهاجم وهجا دعاة الإصلاح واللامركزية من العرب²¹.

وبعد الحرب العالمية الأولى عام 1918م، انتقل الرصافي إلى دمشق، ثم عين هناك أستاذا للأدب العربي في دار المعلمين بالقدس، فأقام مدة وعاد إلى بغداد حيث عين نائبا لرئيس لجنة الترجمة والتعريب في وزارة المعارف، ثم أصدر جريدة الأمل (يومية) سنة 1923م، فعاشت الجريدة أقل من ثلاثة أشهر ثم اندثرت. ثم عين مفتشا في المعارف، فمدرسا للعربية وآدابها في دار المعلمين، فرئيسا للجنة الاصطلاحية العلمية، واستقال من الأعمال الحكومية سنة 1928م، وانتخب "عضوا" في مجلس النواب، خمس مرات

مدّة ثمانية أعوام، وزار مصر سنة 1936م²². وعندما قامت ثورة رشيد عالي الكيلاني في أوائل الحرب العالمية الثانية نظم أناشيدها وكان من خطبائها، ولما فشلت الثورة، انعزل بعدها عن الناس وعاش متروياً عنهم إلى أن توفي ببيته في الأعظمية سنة 1945م.

مؤلفاته: ونذكر بعضاً منها لضيق المجال، وهي كما يلي:

1. ديوان الرصافي، وهو مطبوع في جزأين، ووفقاً لقول الأستاذ منجد مصطفى بجحت²³، اشتملت الطبعة الثانية منه على أكثر شعره إلا أهاجي ومجونيات مخطوطة متفرقة.

2. رسائل التعليقات في نقد كتاب النقد الفني وكتاب التصوف الإسلامي - وكلاهما للدكتور زكي مبارك. في مطلع عام 1944 نشر للرصافي هذا الكتاب الصغير ولم يكد يترل إلى الأسواق وتداوله الأبادي حتى قامت عليه ضجة كبيرة أثارها بعض رجال الدين فاتهموه بالكفر والالحاد والتطاول على الرسول (ص)، ووصلته تهديدات بالقتل. ووجد الرصافي نفسه في محنة جديدة وهو يصارع الشيخوخة والأمراض والفقر.

وذهبت بعض الوفود إلى البلاط الملكي وديوان رئاسة الوزارة مطالبة باتخاذ الإجراءات بحق الرصافي، فعهدت الحكومة إلى مدير الأوقاف العام بالتحقيق في هذا الموضوع واستطلاع آراء علماء الدين في كتاب الرصافي وهل يمسّ الدين الإسلامي، فلما فعل جاءت الردود بأن كتاب الرصافي ليس فيه افتئات على كرامة الدين، وأن الرصافي يظهر في كتابه قوى الإيمان بالله ورسوله، راسخ الاعتقاد بما جاء به القرآن الكريم، وبذلك انتهت هذه الأزمة²⁴ التي أحدثها نشر "رسائل التعليقات".

3. محاضرات في الأدب العربي - جزآن

4. ديوان الأناشيد المدرسية

5. تمائم التربية والتعليم - شعر

6. آراء أبي العلاء

7. ونشر بعد وفاته: الآلة والأداة - في استعمال الأدوات والآلات التي يحتاج إلى استعمالها²⁵.

8. رواية الرؤيا: وقد عربها عن التركية (وهي تأليف شاعر الأتراك الأكبر، نامق كمال)²⁶

9. الشخصية المحمدية

10. الرسالة العراقية

رسائله

لقد استطاع عبد الحميد رشودي أن يجمع بين دفتي كتابه مائة رسالة للرصافي، وتتسم الرسائل بقيمة علمية تكشف عن ثقافته، ولاسيما في ضروب العلم والمعرفة، منها ما يتصل بعلم النحو والكلام والعقائد، ومنها ما يتصل بسياسة البلاد وأوضاعها الاجتماعية، وبث في بعض رسائله شكواه مما يكابد من جور السلطان وتنكر الزمان، وتدلّ الرسائل كذلك على حصافته وتتبعه للحقيقة، إذ كان يسأل عن بعض الوقائع التاريخية والمسائل الفقهية والكلامية والنحوية²⁷.

ديوان الرصافي

خلف الرصافي تراثا شعريا ضخما في الكمّية، ثميناً في المحتوى، ومتنوعاً في الأغراض، وتلاحظ نجدة²⁸ فتحي أن شعره متين السبك، شديد الأسر، وأن قدرته على النظم خارقة، وسيطرته على القافية قوية ولا يكاد القارئ يجد في شعره أثراً لتكلف في صياغة فكره في قالب شعري، ولا أي تقصير وتأخير مراعاة للوزن أو القافية.

تقلب الرصافي في الحياة السياسية وساهم فيها، وعانى من حياة الفاقة ما عانى، وهو أشعر ما يكون حين يتحدث إلى قارئه عن هاتين الناحيتين: السياسة والحرمان، على أن له قصائد في وصف الطبيعة ووصف المجتمع²⁹.

اتفق الرصافي خلال إقامته في بيروت مع المكتبة الأهلية على نشر مجموع من شعره، فصدرت في عام 1910 بعنوان ديوان الرصافي، وكان هذا أول ديوان يصدر له، وقد عني صديقه محيي الدين الخطّاط بترتيب الديوان وتبويبه، وكتب مقدّمة له في شاعرية الرصافي، كما عني الشيخ مصطفى الغلاييني بشرح ألفاظه³⁰.

لقي صدور ديوان الرصافي بقبول حسن وباستحسان كبير، واهتمت به الأوساط الأدبية اهتماماً عظيماً، وكتبت عنه مقالات لا يمكن حصرها. وقد كتب العلامة الشيخ عبد القادر المغربي مقالة طويلة في تقرّظ الرصافي، وهو يقول فيها:

"...ولكن لم يخطر ببالنا أن يقوم في بلاد العراق على تأخرها، بالنسبة إلى مصر، شاعر يبدّ النابغين، ويتلقّى رواية الشعر الاجتماعي باليمين، أريد به السيّد معروف الرصافي. فقد تصفحت ديوانه تصفحاً يليق به، وبمكانة صاحبه... أما مطالبه أو أغراضه الشعرية العليا، فهي من أشرف الأغراض وأنبهها، وأعلقها بمصلحة الأمة التي نشر هذا الديوان بين أبنائها... وربما لم يرقم إلى اليوم في بلادنا شاعر مثله، أبدع القول في وصف حياتنا الحاضرة ومطالبها العليا إبداعه... على أنه إذا شاركه في هذه الأغراض

الشعرية الاجتماعية مشارك، فإنه في وصف البؤس والبؤساء منقطع القرن، وفي إثارة الشفقة عليهم لم يشبههم أحد من الشعراء المعروفين...³¹

ومن يلقي نظرة عامة على ديوانه يرى أن أهم الأغراض التي عالجها الرصافي في شعره هي القضايا الاجتماعية، والتي فيها قيم حضارية كانت جديدة في زمانه، وأهداف نبيلة في إيقاظ الأمة، ومعالجة مشاكلها والتنبيه إليها، فقضايا الفقر، وأهمية العلم والتعليم، والحرية الاجتماعية والسياسية والفكرية، وحرية الشعوب في تقرير مصيرها، كانت من أهم الموضوعات التي شغلت جانباً كبيراً من اهتمامه³².

الرصافي والوطن:

كان الرصافي إنساناً تضنيه مصائب الإنسانية، وتؤلمه آلامها، وكان يحسّ إحساساً عميقاً صادقاً بأن حال قومه لن تستقرّ، ولا بدّ أن تفضي إلى ثورة تقضي على كيان النظام القائم، ولكنه لم يكن يقدر على تعيين زمن الثورة التي يتوقعها. وكان يرى أن نظام الحكم سائر في غير مصالح الأكثرية، وكان يرى الشعب يعذب من جراء الجوع والمسغبة، وهو مسلم يقتضيه الدين الإسلامي وجوب مساعدة هذا الشعب، ويرى جماعة ترقص مع كل حاكم وتعطّر الجوّ لكل أمير، وتهرّج لكل قادم، من غير أن تهتمّ إلا بمصالحها الذاتية فكان ناقماً متبرّماً، شديدة النقمة عميق الشكوى.

كانت أكثر قصائد الرصافي الاجتماعية والوطنية ممزوجة بحالاته النفسية والوجدانية، ففيها حنين إلى الوطن حينما كان بعيداً عنه، وعتاب على بغداد لتأخرها الاجتماعي والسياسي، ولتناسيها ابنها الذي ما زال يتغنّى بحبه لها حتّى يومه الأخير، ولكنه في الوقت ذاته دعا إلى التسامح مع الآخرين، والصفح عن الأعداء، والقناعة في العيش³³. ولعلّ شعره السياسي والقومي هو الذي أكسبه شهرته الواسعة ولفت الأنظار إليه في بداية عهده.

والرصافي على ما كان عليه من نكد الحظ وسوء الحال، لم يهاجم أبناء وطنه بل كان هجاؤه ينصب على الأجنبي "أصهب العثنون"، فقد كانت روحه السمحة الأبية، ترى جفوة وطنه له، شيئاً جميلاً يقدّمه له الوطن كما يتأول العاشقون أحياناً جفوة أحبائهم، فقال قوله المتصوّف:

إن جفتنا أوطاننا فهي حبّ	ومن الحبّ يستلذّ الجفَاء
لم نحل عن عهددها مذ جفتنا	بل لها الودّ عندنا والوفاء
قد بكينا شجوا عليها ومنها	وعنانا سقامها والشقاء
كم أردنا سخطا عليها ولكن	غلب السخط في القلوب الرضاء
إنما هذه المواطن أمّ	مستحقّ لها علينا الولاء
إن خدمنا فلا نريد جزاء	ومن الأمّ هل يراد الجـزاء ³⁴

وحبّ الإنسان، هو الذي يفرض عليه أن يغضي عن سيئات أبناء شعبه لأنه يرى نفسه قطعة من هذا الشعب، فما عليه إلا أن يكون صريحاً في قوله، جريئاً في معالجته مشكلاته، وقد كان الرصافي صريحاً وواضحاً وقد وصفه صديقه الأستاذ مصطفى علي بقوله: "...كان في الصراحة في القول والوضوح في الشخصية والصفاء في النفس والسموّ في المقاصد بحيث يأبى أن يضرب بينه وبين الناس حجاباً من الرياء، ويأنف من أن يخطط عليه ثوباً من النفاق..."³⁵

وقد كان شعره مثلاً واضحاً في ذلك، وهو على الشقاء الذي حاق به، لتجاهل الوطن لحقه، نراه يترنّم وقد دهمت الوطن المصيبة بعد ثورة 1941م قائلاً:

وطن عشت فيه غير سعيد	عيش حرّ يأبى على الدهر عوجه
أتمنى له السعادة لكن	ليس لي فيه ناقة منتوجه
أخصب الله أرضه ولو أي	لست أرعى رياضه ومروجه
كلّ يوم بعزة أتغني	جاعلاً ذكر عزه أهزوجه
ما حياة الإنسان بالذلّ إلا	مرّة عند حسوها ممجوجه ³⁶

وقد عاش معروف غير سعيد لما أصابه وأصاب وطنه من فقر وحرمان واستعمار وسيطرة أجنبية وتمزّق بين أبنائه وتطاحن دائم، وكان هو يتعلّق بوطنه، ويظلّ في كنفه، ليتهيأ له التحرّر، ولتنتشر فيه حرّية الفكر فقال:

وما هذه الأوطان إلا حدائق	بها تنبت الأفكار من أهلها زهرا
وما حبّها إلا لأجل التحرّر	يكون إلى العلياء بالناس منجرا
وما حسنّها إلا بأن سمائها	تضاحك من أحرارها أنجما زهرا
إذا كان في الأوطان للناس غاية	فحرّية الأفكار غايتها الكبرى ³⁷
فأوطانكم لن تستقلّ سياسة	إذا أنتم لم تستقلّوا بها فكرا

وقد رضي الرصافي بالعيش في وطنه، رغم إحساسه بسوء حياته ونكده فيه، لأنه يحبّ الوطن، ولا يرى سواه بديلاً.

ولما نشبت الحرب العالمية الأولى في سنة 1914، ودخلت العراق الدولة العثمانية إلى جانب الألمان، دعا الرصافي إلى الجهاد دفاعاً عن الوطن:

يا قوم إن العدا قد هاجموا الوطن	فانضوا الصوارم واحموا الأهل والسكنا ³⁸
واستنفروا لعدو الله كلّ فتي	ممن نأى في أقاصي أرضكم ودنا

كذلك طالب بتحرير مصر وعدن من الانكليز وهو ليس من أهل مصر ولكن من الأعراب فرأى نفسه ينتمي إلى مصر بكونه عربا، ويقول:

عار على المسلمين اليوم إنهم لم ينقذوا مصر أو لم ينقذوا عدنا
والتفت الرصافي إلى مصر، وهاجم السلطان حسين كامل ووزيره حسين رشدي لمشايعتهما الانكليز وعدم وقوفهما إلى جانب الدولة العثمانية بإعلان الجهاد فقال:

قل للحسين في مصر رويدكما قد خنتما الله والإسلام والوطنا
ولم ينس الرصافي وطنه العراق، عندما كانت القوات البريطانية على وشك التزول في أراضيه وقال إبرازا حبه للوطن:

وربّ مستصحب لي قال يخبرني إن العدوّ إلى أرض العراق دنا
إن صحّ أنّ العدوّ اليوم مقرب إلى العراق فقد أكدى وقد أفنا³⁹
وقد سيطر على نفسه هاجس العلم سيطرة كاملة فهو لا يجد فرصة للكلام إلا اتخذه وبيّن فيها مضار الجهل وفائدة العلم إذ هو يرى أن في الدعوة إليه إخلاصا للوطن وإخلاصا للشعب، ومن ذلك رائيته "إلى أبناء المدارس" ونقتطف منها ما يأتي:

إذا ما عَقَّ موطنهم أناس ولم يبنوا به للعلم دورا
فإن ثياهم أكفان موتي وليس يبوهم إلا قبورا
وحقّ لمثلهم في العيش ضنك وإن يدعوا بدنياهم ثبورا
أرى لبّ العلى أدبا وعلما بغيرهما العلى أمست قشورا
أبناء المدارس إن نفسي تؤمّل فيكم الأمل الكبير
ستكتسب البلاد بكم علوا إذا وجدت لها منكم نصيرا
فإن دجنت الخطوب بجانيها طلعت في دجنتها بُدورا
وأصبحتم بها للعزّ حصنا وكنتم حولها للمجد سورا
إذا ارتوت البلاد بفيض علم فعاجز أهلها يمسي قديرا
ألا هل تسمعون فإنّ عندي حديثا عن مواطنكم خطيرا
ورأيا في تعاونكم صوابا وقلبا من تخاذلكم كسيرا
قد انقلب الزمان بنا فأمست بغاث القوم تحتقر النسورا
وكم من فأرة عمياء أمست تسمّى عندنا أسدا هصورا
فكيف ترون في الأوطان عزّا وقد ساءت بساكنها مصيرا

ولم يك بعضنا فيها لبعض على ما ناب من خطب ظهيرا
ألَسنا الناظمين عقود مجد نزين من العصور بما النحورا ؟
إذا لجج الخطوب طمت بنينا عليها من عزائنا جسورا
لنبتدر العبور إلى المعالي بحيث تطاول الشعرى العبورا
ألا يا ابن العراق إليك أشكو وفيك أمارس الدهر المكورا⁴⁰
تنفّض من غبار الجهل واهرع إلى تلك المدارس مستجيرا
فهنّ أمان من خشي الليالي وهنّ ضمان من طلب الظهورا⁴¹
وله قصيدة أخرى في هذا الغرض وعنوانها: "الوطن والأحزاب" ونأتي منها بالآيات الآتية:

متى نرجو لغمتنا انكشافا وقد أمسى الشقاق لنا مطافا
ملأنا الجوّ بالجدل اصطخابا وكنا قيل نملؤه هتافا
وما زلنا نهمم بكلّ واد من الأقوال نرسلها جزافا
ونرجف في البلاد بكلّ عيب يهزّ فرائص الأمن ارتجافا
ونتهم الحكومة باعتساف ونحن أشدّ ظلما واعتسافا
تباكيننا على الوطن اختداعا فأنبتنا بأدمعنا "الخلافا"
أجاعتنا المطاعم فاختلّفنا لنملاً في موائدنا الصحافا
ولكنّا من الوطن المفدّى نخيط على مطامعنا غلافا
أقول ولو يسوء القوم قولي بيتانا للحقيقة واعترافا
قد اختلفت البرية واختلفنا فكنا نحن أسوأها اختلافا⁴²
فلا تغررك أحزاب شداد بأن لهم أقاويلا لطافا
وما اختلفوا لمصلحة ولكن ليأكل أقوياؤهم الضعافا
أرى الأحزاب من طمع وحرص قد احترقوا إلى الفتن السجافا
يجانف بعضهم في الرأي بعضا وبئس الرأي ما التزم الجنافا
وأنى يصلح الأوطان قوم بها أشقى تدابرهم وصافا
فكن منهم على طرف بعيدا وحاذر أن تكون لهم مضافا
فهم كالبحر يهلك راكبه ويسلم منه من لزم الضفافا⁴³

3. ترجمة وجيزة عن عبد الرحمن عبد العزيز الزكوي

ولد عام 1960م بمدينة زاكي⁴⁴، إحدى المدن في ولايات بلاد يوربا، جنوب نيجيريا، وتلقّى بها تعليمه الابتدائي الانكليزي، ثم التحق بمركز التعليم العربي الإسلامي، أغيجي، لاغوس، نيجيريا، وفيها تعلّم وتخرّج من المرحلة الثانوية عام 1985م، ثمّ عمل مدرّسا في بعض المدارس الأهلية وفي كليّة معلّمي اللغة العربية بإيسيين، ولاية عويو، نيجيريا، عام 1991م، فأعيد مرة ثانية إلى المركز كمدرّس لما لوحظ فيه من الموهبة اللغوية والملكة الشعرية، وبعد قضى مدّة في المركز قام برحلة علمية إلى القاهرة في دورة تدريب الأئمة والعلماء، ثم عاد إلى المركز وواصل عملية التدريس فيه، ثمّ بعد سنوات قليلة عُيّن إماما جامعاً في أحد المساجد الجوامع في ولاية لاغوس، نيجيريا، فهو إلى الوقت الحاضر ما زال يباشر منصب الإمام الجامع بالإضافة إلى شغل التدريس في مدرسة أسسها هو باسم "مركز ضياء العلوم العربية".

شاعريته

ولقد ظهرت شاعريته أشدّ ظهوراً بعد التخرّج وذلك عندما أرسل إلى أساتذته في المركز التعليم العربي الإسلامي، بقصيدة شاكرًا إياهم فيها لسعيهم على حسن تربيته وتأديبه، ولقيت القصيدة بقبول حسن لدى الجميع مما جعلهم استقدموه إلى المركز مرة ثانية لكن كعضو من الهيئة التدريسية⁴⁵.

وفي أوان تواجده في القاهرة نظم أشعارا استحسناها بعض الأساتذة في جامعة القاهرة ومنهم الشيخ إبراهيم يونس، والدكتور أمين محمد عطية باشا، والدكتور عبد اللطيف فادي وآخرين.

ولم يكن الزكوي أوّل شاعر يرباوي أنتجها مركز التعليم العربي الإسلامي، لاغوس، نيجيريا ولكنه يمتاز عن الآخرين الذين برزوا قبله بارتجاله قول الشعر في أي مناسبة كان، وفي وقت قصير، ولعل هذه الميزة هي التي حدا بشيخه المرحوم آدم عبد الله الإلوري أن يلقّبه بشاعر المركز. ولقد أكسبه ملكته الشعرية الحبّ في أوساط الأدباء العربيين النيجيريين وبعض العلماء المصريين السابق ذكر أسمائهم.

ولقد حاول الزكوي أن ينظم الشعر في معظم الأغراض الشعرية القديمة تقريبا، من شعر الوصف، والمدح، والثناء، والتصوّف، والسياسة، والاجتماعية، والقومية، والوطنية، وشعر التعليمي، وشعر المناسبات وما إلى ذلك.

ومن جيّد ما قال في المناسبات قصيدة ترحيبية لضيف الشرف فضيلة الشيخ السيّد غالي لُو، ممثّل الندوة العالمية للشباب الإسلامي في غرب أفريقيا بمناسبة زيارته لمركز التعليم العربي الإسلامي بأغيجي نيجيريا، في أكتوبر، 1994م، ومن أبياتها ما يأتي:

منا إليك سلام سيّدي غالي لو ممثّل الندوة العليا وتفضيل

ما أنت بضيف بل أخ كرما يا من تجمّع لاستقباله الجليل
عُيّنَت من مكّة مندوب ندوكم لغرب أفريقيا هذا لتبجيل
لندوة للهدى والعلم ناشرة إذ الجهالات والظلمات تضليل
لندوة من يديها روسيا اعتنقت دين المهيمن صدقا والبرازيل⁴⁶

وكذلك قال ترحيبا بشيخ الأزهر، فضيلة الإمام الأكبر، الشيخ جاد الحقّ علي جاد الحقّ عندما زار مركز التعليم العربي الإسلامي أغيجي، نيجيريا، 1983. والقصيدة في أربعين بيتا ولكن نقتطف منها فقط ما يلي:

خليلي عوجا وانظرا البدر باديا من الأزهر المعمور عمّ النواحيا
وذلك بدر العلم والدين فاسمعا وكان لعيد اليوم من مصر جائيا
هو الشيخ جاد الحقّ دام بفضله وشيخ تراث الفاطميين عاليا
فأهلا وسهلا بالإمام وأهلته إلى أرضهم بل أرض نيجيريا ثانيا
يحييك جاد الحقّ ربّ العلى كما ذكرنا بك اليوم السنين الخواليا⁴⁷

وقد نُشر بعضٌ من قصائده وبعضٌ آخرٌ ما زال مخطوطا، وله دواوين صغار جمع فيه بعض أشعاره ومنها: "نشر الياسمين في قصائد عيد الأربعين" "والريحان في قصائد رمضان". ومن جيّد ما قاله في الوطنية شعره الاجتماعي السياسي الذي دعا فيه المواطنين النيجيريين عامة وأبناء قبيلته اليورباوية خاصة، إلى التآخي والتعاون والاتحاد حتّى تتقدّم البلاد وتعيش في الرخاء والسلام والوثام. والقصيدة في ستين بيتا وزيادة، ولكن نقتطف منها الأجزاء المهمّة والمتعلّقة بموضوع هذا البحث، والموسومة بـ "إلى أبناء يوربا" ومطلعها:

نعيش بأرضنا عيشا أسيرا إلى كم نشكي ويحا ثبورا

ونهايتها:

وهذا ما لديّ خذوه عضّا وقد نورّت للعزميّ نورا⁴⁸

4. الوطنية بين الشعارين: أوجه التشابه والتباين

ولتحقيق هذا الغرض، نحدّد مجال المقارنة ببعض القصائد المذكورة أعلاه من دواوين الشعارين. فنختار القصيدة الموسومة بـ "إلى أبناء المدارس" و "الوطن والأحزاب" من ديوان الرصافي، والمعنونة بـ "إلى أبناء يوربا أجمعين" من شعر عبد الرحمن الزكوي، لما لاحظنا فيها من ظواهر شدّة التأثير والتأثر.

المضمون:

الأفكار والمعايير- فإنه ليس يخفى ما بين العنوانين، "إلى أبناء المدارس" للرصافي و "إلى أبناء يوربا" للزكوي، من التشابه، ولعلّ الزكوي استعار ذلك العنوان بتصرّف يسير من الرصافي أو جاء ذلك صدفة، ولكن ما تبعت ذلك من التشابهات الكثيرة بين القصيدتين يجعلنا نشكّ في كون هذا التشابه من باب الصدفة: فقصيدة "إلى أبناء المدارس" من اجتماعيّات الرصافي التي اتخذ فيها فرصة لبيان مضار الجهل وفائدة العلم، ثمّ الدعوة إلى العلم لما يرى فيه من إخلاص للوطن وإخلاص للعشب:

إذا ما عَقَّ موطنهم أناس ولم يبنوا به للعلم دورا
فإن ثيابهم أكفان موتي وليس ييوتهم إلا قبورا
وحقّ لمثلهم في العيش ضنك وإن يدعوا بدنياهم ثبورا
أرى لبّ العلى أدبا وعِلما بغيرهما العلى أمست قشورا
أبناء المدارس إن نفسي تؤمّل فيكم الأمل الكبير⁴⁹

وأما قصيدة "إلى أبناء يوربا" للزكوي، فإنها من اجتماعيّاته التي اتخذ فيها فرصة لاستنكار وضع وطنه السياسي إظهارا حبه للوطن، وقد بدا فيه تألمه بآلام قبيلته وقومه، وإحساسه العميق الصادق بأن حال قومه ما استقرّ سياسيًا واقتصاديًا، ولا بدّ أن يغيّر الوضع إذا أريد للوطن التقدّم. وهو يرى أن نظام الحكم سائر في غير مصالح قومه، إذ الشعب يعدّب من جراء الجوع والمسغبة في موطنه، فحالات الزكوي النفسية والوجدانية بارزة في هذه قصيدته الاجتماعية الوطنية. وقد استهلّ القصيدة بشكوى أنهم يعيشون في بلادهم عيشة أسرى حيث صاروا مجبورين في أرضهم:

نعيش بأرضنا عيشا أسيرا إلى كم نشكي ويحا ثبورا
ومن أثمارنا نسقى حميما ونطرد من مساكننا جبورا
نقهقر في السيادة كلّ يوم ولم نشعر بأحداث شعورا

ويتابع ذلك بتذكّار الماضي، وبالتساؤل عمّا كانت عليه حالهم في سالف الزمن من حسن وخير مما أكسبهم صيتا حسنا خارج وطنهم، ثمّ يتساءل عمّا نزل بهم حتى صاروا كالموتى بين الأحياء، فقد كانت لغة قومه قبل اليوم من اللغات الحيّة الراقية ثمّ اندثرت، وهو يتحسّر على ذلك قائلا:

ألسنا قبل حاضرنّا رجالا؟ فشت أخبارنا فشوا نضيرا
أصّرنا أمة عمياء؟ عفووا ولم أر بيننا فطنا بصيرا
ألسنا بين أحياء كموتى؟ تراب الأرض يكفينّا قبورا
فقبل اليوم كنّا خير قوم وأعلى الثوب نلبسه حريرا
ويومئذ فلغتي من لغات علت بجمالها عزّا دهورا

نبيت على السرير من قديم بساط نيامنا أضحى حصيرا
على سؤلي أمنكم من يجيب؟ فإني طالب رجلا خبيرا
إلى كم نحن في ظمإ وجوع؟ سكتنا لا كلام ولا ظهيرا
مناصبنا أروني في بلادي؟ فلا تجدوا وإن تجدوا قشورا

وهو يعلّل كلّ ذلك إلى الشقاق الشديد والانفراق الحادث بين الأمم الثلاث التي تكوّن منها بلاده،
نيجيريا، فقد شهدوا من الدهر "الضحوك" ثمّ شهدوا منه بعد ذلك "عبوسا قمطيريرا" فصارت المعيشة
في البلاد نوعا من العذاب، ولهذا وذاك رأى من الضروري أن يستنهض بالهمم ويطالب بالاتحاد في سبيل
الحرية الكاملة لبني قومه، فوجّه إليهم قصيدته، واتخذها منصّة لوصف الأحداث وبيان الأحوال،
وتشخيص الداء وتقديم العلاج له، ولقد انطلق من الأبيات السابقة إلى:

تشعت جمعنا شتى شديدا وكان الانفراق بنا خطيرا
أتانا الدهر يومئذ ضحوكا وصار بنا عبوسا قمطيريرا
وما نفع المعيشة في بلادي بهذا لا حبور وسرورا
إلى أبناء يوربا أجمعين أمنكم من يبين لي أمورا
ففي نيجيريا أمم ثلاث لنعرض ذكرها فورا جديرا
وأولاها وأكثرها هؤوسا ويوربا إيوا آخرها ظهورا
أبت أولاها إلا أن تكون رئيسا بالتجبر بل أميرا
وكانت قوم إيوا بالنيابة وكانت يوربا شيئا حقيرا
تصبرنا على الأحداث قسرا ويتخذون من قومي وزيرا
بقونا أمّة مستعمرين علام نعيش يا قومي حؤورا؟

وهو يرى أنه وإن كانت أقوام آخرون تضطهد بني قومه، إلا أنه يوجد منهم من كوّنوا عقبات في سبيل
التحرّر من العبودية إلى أبناء القبائل الأخرى كإيوا، وهؤوسا. وقد مثّل بما فعلوا بعبد الباقي تندي (وهو
من قبيلة يوربا ونائب رئيس الدولة النيجيرية سابقا) حيث كثّروا في ذمّه لأنه سعى بالجدّ ولم يدع مجالا
للظلم، وقد هدّموا دولتهم أخيرا وأضاعوا عبد الباقي في موامرة:

إذا ظهر الحرّر بين قومي يقوموا ضده حسدا نكيرا
فأول من يقوم عليه قومي بزعم لم يكن شخصا وقورا
وهذا دأب يوربا من قديم لهذا لا ترى فيهم قديرا
كذا فعلوا بعبد الباقي تُندي وكان لشأننا رجلا بصيرا

رئيسا بالنيابة في البلاد يسمّى دائما أسدا هصورا
بقائدنا محمدنا بخاري رئيس الحقّ كان به شهيرا
هو الطرطور أحمد ذو فصاحة فدولتهم مهذّمة أخيرا
فقومي كثّروا في ذمّ تندي بكونه ليس مضحاكا كثيرا
سعى تندي بخير السعي لكن به لا يبتغي منا شكورا
فها هو يبتغي الأجر الإلهي وجنة ربّه تكفي أجورا
أضاعوه وأي فتى أضاعوا؟ وأنّى نلتقي فذا نظيرا

وبمضي الشاعر بوصف تلك الأحوال والأوضاع، بانقلاب الزمان، ما جعل بغاث القوم تحتقر النسور، كما جاء في أبيات قصيدة الرصافي، وقد صرّح الزكوي بذلك تضمينا ببیت الرصافي في قصيدته مما يؤكّد على تأثر اللاحق منهما بالسابق:

أقول كقول شاعرنا الرصافي ونعم القول دونكه نذيرا
"قد انقلب الزمان بنا فأمست بغاث القوم تحتقر النسورا"

وبدأ ينادي بني قومه إلى الإجابة لما هو يتقدّم به من المشورة والاقتراحات التي قد تنفع في علاج ذلك الداء وتلك الحادثات التي شخّصها هو، ومن الأدوية التي أوصى بها هي التآخي والتعاون على الإحسان فيما بين القبائل أو الأقوام الثلاثة الموجودة في نيجيريا: يوربا وهؤوسا وإيوا، ثمّ يحذّرهم من الحقد والبغض والحسد وشرّ الطبع، ونبذ التعصّب القبلي وإخلاص النية. فبذلك يعيشوا بالوئام وفي السلام وفي القوّة والاتحاد كأسنان المشط. فإذا فعلوا ذلك كلّهُ، فعن قريب ينجو من الويل والشقاء ويعاد لوطنهم حسن الصيت والمجد:

بني قومي أجيوا إن عندي كلاما فاسمحوا لي بله شورا
فهذي الحادثات لها علاج وكان دواؤها شيئا يسيرا
فكونوا بالتعاون والتآخي على الإحسان كان لكم نصيرا
بهذا نبذوا حقدا وبغضا ومحسدة كذا طبعاً شريرا
كذاك تعصّباً قبلياً نبذا ونقوا عن مفاسدكم ضميرا
تكونوا أقوياء إذا فعلتم عواقبكم سنحدها سرورا
على الأعمال والإنتاج دوموا تصيروا بين عالمنا بدورا
فكونوا بالوئام وبالسلام كأسنان المشاط وأن نجيرا
من العقبات ننجو عن قريب كفانا الله خاقنا مجيرا

ويستنهض بهمم بني قومه ويصّرهم بالمنفعة في الاتحاد، ويحذّر يوربا من الفشل المرير، داعيا إياهم إلى تجنب غرور القول ليتقدّموا شوطا إلى الأمام، ولكي لا يسخر منهم الأعداء الذين أحاطوا بهم شرقا وغربا، ثمّ ينصح بالتمسّك بصالح الأعمال ليستحقّوا رحمة الله ورزقه الغزير، وليستردّوا ضياعهم إلى وطنهم:

فقد حان القيام إلى الأمام لنشرب سائغا ماء نмира
أحاط بنا العدى شرقا وغربا ألا فتجنّبوا قولا غرورا
حذار حذار من فشل مرير وكان ليوربا خطرا كبيرا
ستخشانا الحوادث باتحاد ولا نخشى به ريحا دبورا
يردّ ضياعنا ربّي إلينا بهذا يترّل الرزق الغزيرا
إذا مارستموا عملا بخير وصفو قلما نجد الفقيرا⁵⁰

ويختتم القصيدة بالحمدلة والسحبة والدعاء والصلصلة على الرسول الكريم، محمّد بن عبد الله، ومنبّها على ما في قوله من النور للمسترشد، صاحب المهمة:

وأحمد ربّنا في كل حال وكان الله رحمانا شكورا
ليغفر عن ذنوب جميع قومي وكان الله ذا عفو غفورا
وحسن خلق قومي يا إلهي وأنت مغير خلقا شريرا
على من قد تلا قرآن ربّي وانجيل وتورا، زبورا
أصلي دائما نعم الرسول وكان لخاشعي ربّي بشيرا
وهذا ما لديّ خذوه عضّا وقد نورّت للعزمي نورا

العاطفة والمشاعر: ويلاحظ ما تتصف به قصائد الشعراء من عاطفة صادقة جيّاشة وإحساس بالحزن والأسى، ووصف المشاعر الذاتية وهزّ المشاعر والأحاسيس في قارئهم. نجد في "الوطن والأحزاب" للرصافي:

متى نرجو لغمّتنا انكشافا وقد أمسى الشقاق لنا مطافا⁵¹

وعند الزكوي، نجد مثل هذه العاطفة الصادقة الجيّاشة التي تسببه الإحساس بالحزن والأسى، ولقد تجلّت العاطفة من تلك التساؤلات وإظهار التحسّر والتأسّف والتندّم في ما صار إليه شأن المواطنين اليربّابوين ووضع مجتمعهم:

نعيش بأرضنا عيشا أسيرا إلى كم نشكي ويحا ثبورا
ومن أثمارنا نسقى حميما ونطرد من مساكننا جبورا⁵²

التصوير والخيال: تتميز قصائد الشعراء بالصورة الزاهية والخيال الرائع المتألق وتجلّي الصورة عند الزكوي في تصوير أيام بزوغ مجد وطنه، وأيام خموده. فقد أظهر الأوّل في صورة إنسان ضحوك، بينما أظهر الثاني في صورة إنسان عبوس، ثمّ عندما يحدّث بني وطنه على الأعمال الصالحة والإنتاج الجميل، فإنه أخرج ما سيصيرون إليه في العالم من الأخيار، في صورة بدور:

أتانا الدهر يومئذ ضحوكا وصار بنا عبوسا قمطيرا

على الأعمال والإنتاج دوموا تصيروا بين عالمنا بدورا⁵³

وتكثر مثل هذه الصورة والخيال في قصيدة الرصافي، وربّما قد تأثر الزكوي بها، نظرا لتشابه الألفاظ والجميل، ونذكر على سبيل المثال من قصيدة الرصافي ما يأتي:

فإن دجنت الخطوب بجانيها طلعت في دجتها بدورا

وأصبحتم بها للعزّ حصنا وكنتم حولها للمجد سورا⁵⁴

فكلّ من كلمات، بدورا وحصنا وسورا أستعملت مجازا . وكذلك نرى التصوير والخيال في البيتين الآتين من قصيدة الرصافي، "الوطن والأحزاب":

وما اختلفوا لمصلحة ولكن ليأكل أقوىأوهم الضعفا

وأنسى يصلح الأوطان قوم بها أشقى تدابرهم وصافا⁵⁵

وقد أخرج الرصافي ظلم أقوىاء القوم على ضعافهم، في صورة أكل الأقوياء للضعفاء، على حين أن أخذ تدابر هذا القوم في الوطن، صورة من الشتاء والصيف (أشقى وصافا).

وبتدقيق النظر في قصيدة الزكوي، الموسومة بـ "إلى أبناء يوربا" ومقارنتها بـ "إلى أبناء المدارس" و"الوطن والأحزاب" للرصافي، يكشف واحد مدى تأثر الزكوي بالرصافي من حيث المضمون والشكل: إذ يبدو أن الزكوي استفاد مضمون قصيدته من القصيدتين للرصافي، كما اقتبس شكل قصيدته منهما، ذلك إذا اعتبرنا وتأملنا في بحر القصيدة وقافيتها، واللغة والأسلوب والبديعيات والموسيقى.

دراسة الشكل:

اللغة والأسلوب: تصف قصائد الشعراء الثلاث، من حيث الألفاظ بالسهولة، والعدوية، والوضوح، والقرب، وغيرها من خصائص الكلمات التي لا تحتاج إلى رؤية وتأمّل في الفهم والإدراك، فليست فخمة ولا ضخمة، إلا قليلا منها ورد في تلك القصائد ومنها عند الرصافي: الدبور، زعازع، الهتاف، اعتساف، غداق، الجراف، اصطحاب، السجاف، الجناف. وأما عند الزكوي، فنجد: جبور، حوور، نمير، خيور، العزمي، انفراق. وكذلك الأمر في الأسلوب، فجاءت القصائد في تراكيب سهلة ونظم دان من النفس، وعبارات

مألوفة، لا تحتاج إلى تفكّر عميق وتأمّل جهيد، بل تقف النفس على معانيها للمرّة الأولى من القراءة، حتى بدت هذه السهولة كأنها هي اللغة الشعرية الخاصة بالشاعرين، والسمة البارزة في أسلوبهما مثل قولهما:
عند الرصافي:

إذا ما عَقَّ موطنهم أناس ولم يبنوا به للعلم دورا
فإن ثيابهم أكفان موتى وليس ييوتهم إلا قبورا

وعند الزكوي:

فهذي الحادثات لها علاج وكان دواؤها شيئا يسيرا
ستحشانا الحوادث باتحاد ولا نخشى به ريحا دبورا
وإن دلّ ذلك على شيء فإنما يدلّ على تقليد الزكوي للرصافي في الألفاظ، والأسلوب الذي يميل إلى الإحكام في التعبير والرصانة في التركيب.
وكان آثار هذا التقليد والتأثر أشدّ ظهورا في أبيات قصيدة الزكوي مقارنة بأبيات من قصيدة الرصافي كما يأتي:

الرصافي: وساء تقلّب الأيام حتّى حمدنا من زعازعها الدبورا
وكم من فأرة عمياء أمست تسمّى عندنا أسدا هصورا
فلا تستنفعوا التعليم إلا إذا هدّبتكم الطبع الشريرا
الزكوي: رئيسا بالنيابة في البلاد يسمّى دائما أسدا هصورا
ستحشانا الحوادث باتحاد ولا نخشى به ريحا دبورا
بذا نبذوا حقدا وبغضا ومحسدة كذا طبعها شريرا
يرينا إمعان النظر في تلك الأبيات ما في أعجازها من التشابه.

الحسنات البديعية: والقصائد حافلة بالحسنات البديعية غير أنها ليست مقصودة في ذاتها لكن جاءت عفوا من الخواطر ومن محاولة الشاعرين في رسم الصورة مستعينين بها لتقريب الفهم إلى الأذهان، مثل المقابلة في أقوىاء وضعاف، وفي أشقى وصافا عند الرصافي، وأما عند الزكوي، فنجدها في أحياء وموتى، وفي سؤلي ويحيب:

وما اختلفوا لمصلحة ولكن ليأكل أقوىاءهم الضعافا
وأنى يصلح الأوطان قوم بها أشقى تدابرهم وصافا

وعند الزكوي نجد المقابلة في:

ألسنا بين أحياء كموتى؟ تراب الأرض يكفينا قبورا
على سؤلي أمنكم من يجيب؟ فإني طالب رجلا خبيرا

وكذلك نجد الجناس في القصائد، عند الرصافي نجد أمان وضمان، وعند الزكوي، نجد قديم وقدير :

فهنّ أمان من خشى الليالي وهنّ ضمان من طلب الظهورا
وهذا دأب يوربا من قديم لهذا لا ترى فيهم قديرا

ونكتفي بهذين المثالين من البديعيات في شعرهما.

الموسيقى: وكان الشاعرين اتفقا في اختيار وزن واحد وبحر واحد وهو الوافر، لنظم تلك القصائد الثلاث التي عرضناها، كما اتفقا على اختيار قافية واحدة في قصيدتيهما: "إلى أبناء المدارس" و "إلى أبناء يوربا" وهي قافية راء، ولعل سبب ذلك يرجع إلى ما يمتاز به هذا البحر من النبرة المثيرة للعاطفة القوية الصادقة، والموسيقى المتدفقة القوية والإيقاع العذب والنغم الشجي الذي يستولي على المشاعر ويأخذ النفوس، فضلا عن أن البحر يصلح لوصف الحوادث وإظهار التأثير والتحسّر والتفجّع. وبما أن عاطفة الأسي والحزن ظهرت وضوحا في القصيدة، كانت نغمة الموسيقى ناعمة هادئة شجية.

الخاتمة

وبمكنا، بعد هذا البحث المتواضع أن نخلص إلى بعض النتائج على النحو الآتي:

- يتضح لنا جليا من قصيدتي الرصافي والزكوي في الوطنية أن هناك تشابها كبيرا بينهما وتباينا بسيطا بينهما وبإمكاننا إجمال أوجه الشبه وأوجه الفرق في النقاط الآتية:
- توافقت القصيدتان في جانب المضمون، إذ كل منهما ترسم الأحداث الجسام في الوطن وتصفها، وقد تجلّت من القصائد نزعات وطنية محلية اتسمت بالحرص على إبراز كيان خاص، بها نتيجة دوافع سياسية واجتماعية ونفسية، كانت، برغم تطرفها في بعض الأحيان، ذات أثر في تعميق المشاعر الوطنية. ويرز من القصائد تحسّر الشعراء على ذهاب ربح وطنهم، فهما يطمحان إلى استعاد أمجادهم السالفة، والاعتداد بتاريخهم المجيد جاعلين من ذلك حافزا لتقدّمهم ونهوضهم. وهما يطرحان التساؤلات الملحة عن التعاون والتآخي والاتحاد المفقود بين بني قومهم. فهما يستنهضان بالهمم ويطالبان بتحقيق مبادئ الحرية والمساواة والأخوة، واحترام حقوق الإنسان والمواطن. ويتوجّه الشعراء إلى أبناء وطنهم ويهيّان بهما أن ينصرفوا عن كل ما يعيق التقدّم الوطني.

- ولكن يلاحظ أن الرصافي، كثيرا ما يحثّ على طلب العلم في دعوته إلى الوطنية بينما يقدم الزكوي الموعظة والنصيحة على ضوء ما في محكم الترتيل والحديث النبوي.
- تتصف القصيدتان بعاطفة جياشة، وشأهما الإحساس بالحزن والأسى، إلا أننا نرى بأن قصيدة الرصافي كانت أقوى في الوجدان، وذلك لحضور شخصيته في أغلب الأبيات وبروز الذاتية فيها، وربما كان نتيجة ذلك أنه عاش غير سعيد لما أصابه وأصاب وطنه من فقر وحرمان واستعمار وسيطرة أجنبية.
- تتميز قصيدة الرصافي بالصورة الرائعة الكثيرة، أما الزكوي فقد تميز بالاستعارات والصور المجازية المناسبة للسيرة الدقيقة.
- لغة القصيدتين سهلة ويسيرة، مع متانة في الأسلوب وتنوع في التراكيب والإكثار من الجمل الإنشائية القائمة على التساؤل والاستفهام، وقد تكون لغة الرصافي أحيانا صعبا لأنه استكثر من الصورة والخيال مما يستوقف القارئ للمكث والتفكير العميق.
- والقصيدتان مليعتان بالبديعيات، التي جاءت عفوا الخاطر لتقوية الصورة وتقريبها إلى الأذهان.
- اتفق الشاعران على اختيار بحر الوافر وقافية راء لنظم قصيديهما لما يمتاز به هذا البحر من النبرة المثيرة للعاطفة القوية الصادقة، والموسيقى المتدفقة القوية والإيقاع العذب والنغم الشجي الذي يستولي على المشاعر ويأخذ النفوس، فضلا عن أن البحر يصلح لوصف الحوادث وإظهار التأثير والتحسّر والتفجع.
- إذا كان حبّ الوطن من الإيمان، والإيمان ركن أساسي من أركان الإسلام، فإنه يمكننا القول أن الرصافي والزكوي سارا على نهجهما في الشعر للدفاع عن الإسلام ولتمجيد القيم الإسلامية الحضارية. وإذا كان العلم الذي دعا إليه الرصافي في وطنياته، كان أساسا في الحضارة الإسلامية، وكانت الحرية والمساواة بين الناس جميعا والتعاون والتآخي والاتحاد، ومحاربة الجُمود والاستبداد هو جوهر حضارة الإسلام، وقد دعا إليها كل من الرصافي والزكوي، فإذن يتضح لنا أن الشعارين قد ساهما بدورهما في البناء الحضاري.
- وتجدر الإشارة إلى أن هذه المقارنة بين الشعارين ليست لغرض معرفة لمن الأفضلية منهما، بل كان لمعرفة مدى تأثر الآخر منها بالأوّل على الرغم من اختلاف العصور بينهما وبعد

الديار. وانطلاقاً مما سبق في الصفحات كان بوسعنا القول أن مخلفات الرصافي الأدبية قد أثرت إلى حدّ بعيد في الشاعر النيجيري، عبد الرحمن عبد العزيز الزكوي.

الهوامش

- ¹. كاظم حطيط: أعلام ورواد في الأدب العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، 2003، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، ص. 229.
- ². يوسف عزّ الدين: الاشتراكية والقومية وآثارهما في الأدب الحديث، القاهرة، 1976، ص. 119.
- ³. الجامع الصحيح - سنن الترمذي لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة، تحقيق دكتور مصطفى محمد حسين الذهبي، الجزء الخامس، الطبعة الأولى، دار الحديث، القاهرة، 1999م، ص. 532-533.
- ⁴. كاظم حطيط: مرجع سابق، ص. 229.
- ⁵. المرجع السابق، ص. 229.
- ⁶. المرجع السابق.
- ⁷. المرجع السابق.
- ⁸. يوسف عزّ الدين: المرجع السابق، ص. 121.
- ⁹. المرجع السابق، ص. 119-121.
- ¹⁰. المرجع السابق، ص. 121.
- ¹¹. المرجع السابق.
- ¹². المرجع السابق، ص. 129-131.
- ¹³. كاظم حطيط: مرجع سابق، ص. 230.
- ¹⁴. المرجع السابق، ص. 231.
- ¹⁵. حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي: الأدب الحديث 2، دار الجيل، بيروت، 1986، الطبعة الأولى، ص. 485.
- ¹⁶. نجدة فتحي صفوة: معروف الرصافي، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، 1988، ص. 10.
- ¹⁷. منجد مصطفى بهجت: ثلاثية الفقر والمرأة والطفولة كما يصورها معروف الرصافي، مجلة التجديد، المجلد 11، العدد 21، 2007، الجامعة الإسلامية العالمية، ماليزيا، ص. 146.
- ¹⁸. نجدة فتحي صفوة: مرجع سابق، ص. 10.
- ¹⁹. المرجع السابق.
- ²⁰. نجدة فتحي صفوة: المرجع السابق، ص. 10.
- ²¹. منجد مصطفى بهجت: مرجع سابق، ص. 146.
- ²². المرجع السابق.
- ²³. المرجع السابق. 147.
- ²⁴. نجدة فتحي صفوة: مرجع سابق، ص. 45.
- ²⁵. منجد مصطفى بهجت: مرجع سابق، ص. 146.
- ²⁶. جميل سعيد وآخرون: تاريخ الأدب العربي الحديث، مطبعة العاني، بغداد، 1956، ص. 171-172.
- ²⁷. منجد مصطفى بهجت: مرجع سابق، ص. 148.
- ²⁸. نجدة فتحي: مرجع سابق، ص. 48.

- ²⁹.جميل سعيد وآخرون:مرجع سابق، ص.172
- ³⁰.نجدة فتحي صفوة:مرجع سابق ، ص.14
- ³¹.ديوان الرصافي:مطبعة الاستقامة، القاهرة،1957،ص.ب.
- ³².نجدي فتحي:مرجع سابق، ص.50
- ³³.المرجع السابق، ص.51
- ³⁴.ديوان الرصافي:مطبعة الاستقامة، القاهرة،1957،ص.338
- ³⁵.مصطفى علي:الرصافي، ص.8
- ³⁶.ديوان الرصافي:مطبعة الاستقامة، القاهرة،1957،ص.467
- ³⁷.المرجع السابق:ص.51
- ³⁸.نجدي فتحي:مرجع سابق، ص.19-20
- ³⁹.المرجع السابق
- ⁴⁰.ديوان الرصافي:مرجع سابق
- ⁴¹.ديوان الرصافي:مطبعة الاستقامة بالقاهرة،1957،ص.52-54
- ⁴².المرجع السابق:ص.409-411
- ⁴³.ديوان الرصافي:مطبعة الاستقامة بالقاهرة،1957،ص.409-411
- ⁴⁴.عبد الواحد جمعة أريبي: تاريخ اللغة العربية ونماذج الأدب المركزي، دار الهلال لخدمات اللغة العربية في نيجيريا، شركة دار النور للطباعة والنشر، لاغوس، نيجيريا،1999م، الطبعة الأولى، ص.127.
- ⁴⁵. Omofoyewa Qasim:A Literary study of the poetical works of Abdul Rahman az-Zakawi,Long Essay, Dept.of Arabic and Islamic Studies,University of Ibadan,Nigeria,1998,p.20.
- ⁴⁶.المرجع السابق:من ملحق الصفحات ،بدون رقم
- ⁴⁷.المرجع السابق:ملحق صفحة 8-10
- ⁴⁸. Omofoyewa Qasim:A Literary study of the poetical works of Abdul Rahman az-Zakawi,Long Essay, Dept.of Arabic and Islamic Studies,University of Ibadan,Nigeria,1998,p.31-33.
- ⁴⁹.ديوان الرصافي:مرجع سابق.ص.52-54
- ⁵⁰. Omofoyewa Qasim : مرجع سابق، ص.33-31.
- ⁵¹.ديوان الرصافي:مرجع سابق.ص.409-411
- ⁵². Omofoyewa Qasim :مرجع سابق
- ⁵³.المرجع السابق
- ⁵⁴.ديوان الرصافي:مرجع سابق.ص.52-54
- ⁵⁵.ديوان الرصافي:مرجع سابق.ص.409-411